سلسلة مطويات شبكة بينونة

أملٌ بالله لا ينقطع

الشيخ
د. أحمد بن مبارك بن قذلان المزروعي

www.baynoona.net
@Baynoonanet
@BaynoonanetUAE

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمةً للعالمين نبيّنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن الإنسان في هذه الدنيا يتقلب في معتركاتٍ وابتلاءات، بين نعمٍ وسرّاء، وبين محنٍ وضرّاء، وبين ذنوبٍ وأخطاء، فلا بد في هذه الأجواء أن تكون عند العبد نسمةٌ إيمانية مهمّة، ونورٌ في القلب عظيمُ القدر، ألا وهو حسن الظنّ بالله جَلَّ وَعَلَا.

فإذا أذنب العبد وكثرت ذنوبه، وأخطأ وزلّت به القدم فليعلم أنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رحيمٌ به، يقبله إذا تاب ورجع إليه، فيحسن الظنّ بربه في أنّه يقبله، ويغفر له ذنوبه، ومن أوسع وأعظم الآيات رجاءً في ذلك قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

فإذا رجعت إلى الله فإنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يفرح برجوعك، أيضًا لا بد أن يكون العبد حسن الظنّ عند المحن والابتلاءات، وعند المصائب التي تلمُّ به من موتٍ ونقصٍ في الأموال وخوفٍ وجوعٍ وعطشٍ ومرضٍ، ينظر إلى ما يصيبه من زاوية غير الزاوية التي تُضيِّقُ صدره، ينظر إلى تلك الابتلاءات من زاوية رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى به، وأنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد ابتلاه هذا الابتلاء وصرف عنه ما هو أعظم عنه، أو أنّه قد ابتلاه ليقربه إليه، أو أنه ابتلاه ليرفع درجاته في الآخرة؛ لأنّه بأعماله لا يصل إلى مرتبة علية أرادها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له، فيبتليه ويرفعه، ويبتليه ويرفعه، لذلك ينظر إلى هذه الابتلاءات والمصائب من هذا النظر.

وَإِنِّي لَأَرْجُو اللَّهَ حَتَّى كَأَنَّنِي ... أَرَى بِجَمِيلِ الظَّنِّ مَا اللَّهُ صَانِعُ

سعادتك هنا في قلبك، إن أنت أوقدت فيها شمعة السعادة بحسن ظنّك بربك، قال ﷺ وهذا حديث مهمٌّ جدًّا

قال ﷺ: « إن الله عَزَّوَجَلَّ قال: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، إِنْ ظَنَّ بِي خَيْرًا فَلَهُ، وَإِنْ ظَنَّ شَرًّا فَلَهُ » (١).

تأملوا هذا الحديث، إذا ظنّ العبد بربه الخير جاءه الخير، واندفع عنه الشر، وإذا ظنّ العبد بربه شرًّا قد يجيئه الشر، لذلك يقول ابن مسعود رضي الله عنه كلمةً جميلةً جدًّا، يقول رضي الله عنه: «مَا أُعْطِيَ عَبْدٌ مُؤْمِنٌ شَيْئًا خَيْرًا مِنْ حُسْنِ الظَّنِّ بِاللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ لَا يُحْسِنُ عَبْدٌ بِاللَّهِ عَزَّوَجَلَّ الظَّنَّ إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ ظَنَّهُ ذَلِكَ » (٢).

«إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ ظَنَّهُ ذَلِكَ»، أي: ذلك الظنّ الحسن الذي ظنّه بربه، أو الظنّ السيء الذي ظنّه بربه.

فَلَا تَظُنَّنَّ بِرَبِّكَ ظَنَّ سَوْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ أَوْلَى بِالْجَمِيلِ

والظنّ السوء بالله سبحانه وتعالى محرّم، قال: «إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ظَنَّهُ ذَلِكَ بِأَنَّ الْخَيْرَ فِي يَدِهِ».

فلا بد على الإنسان أن يحيي هذا الظنّ الجميل بربه، ومبعث هذا الظنّ الجميل بربه، ومنطلقه من معرفة العبد بربه عَزَّوَجَلَّ، معرفةً تكون يقينية، معرفة بأسماء الله وصفاته، وبحِكَمِ قضائه وقدره بأن ما فعله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما بد وفيه حكمة بالغة وخير للعبد؛ وتأمل قول الله: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ [التغابن: ١١].

هذا الذي نبحث عنه عند الأزمات، هذا الذي يبحث عنه القلب عند الابتلاءات، عند المحن، يبحث عن راحته، عن طمأنينته، عن هدايته، عن صلاحه: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

ولنقف وقفة عظيمة عند قصة عظيمة من قصص القرآن، لاحظوا قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، في بدايتها كاد إخوة

---

(١) رواه أحمد (٩٠٧٦)، وابن حبان (٦٣٩)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٦٦٣).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله (٨٣).

يوسف بيوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، واجتمعوا على قتله أو طرحه، ثم اتفقوا على رميه في البئر صغيرًا يرمى في بئر مظلم، والذي كاد به أقرب الناس إليه.

وَظُلْمُ ذَوِي القُربى أَشَدُّ مَضاضَةً عَلى المَرءِ مِن وَقعِ الحُسامِ المُهَنَّدِ

لمّا يظلمك البعيد قد لا يكون الأثر قويًّا، لكن لما يكون أخًا أو قريبًا لك هنا الألم أشد؛ لأنّ هذا القريب تنتظر منه النصرة والتأييد والمؤازرة والعون بعد عون الله عَزَّوَجَلَّ، تأمل كاد به إخوته، ورموه في البئر، ثم جاءت السيارة فحملوه وباعوه، فتغرب عن الأوطان، وابتعد عن الأهل والخلان، واشتراه عزيز مصر، وابتلي كما في قصة امرأة العزيز، ولبث في السجن بضع سنين.

انظر إلى هذه الابتلاءات، كيف نظر إليها يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، يتبين ذلك في آخر القصة: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَايَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ﴾ [يوسف: ١٠٠].

لم ينظر يوسف إلى تلك المحن التي مرّ بها، ولكن نظر إلى الخاتمة، نظر إلى ما تحقق في الختام لاحظ: ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ﴾، أي: الله أحسن به ﴿إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾. انظر إلى هذه النظرة الإيجابية الجميلة، بعض الناس ينظر إلى الألم، لا ينظر إلى نهاية الأمل، فيقول في مثل قصة يوسف: أنا دخلت السجن أنا خرجت من بيتي، وطُردت وضُربت ورُميت في البئر وسُجنت، ولكن حسن الظن لا يجعلك تنظر إلى هذه بل تنظر إلى الجانب الإيجابي، قال: ﴿إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ﴾، وأيضًا: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾ إلى مكانٍ فيه حضر وبنيان، وفيه أمن، وأرجع أمر الفتنة إلى الشيطان: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓ﴾.

ومبعث هذا الأمل وحسن الظن والنظر الجميل: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ﴾ الله جَلَّ وَعَلَا لطيفٌ بعباده، رحيمٌ بهم، قال:

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

ولو نظرنا إلى قصة يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أيضًا من مشهد آخر، يعقوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أُخبر بأن الذئب أكل أحب أبنائه، فردة الفعل هنا قال: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞ﴾ [يوسف: ١٨]، تأمل هذا الصبر، صبرٌ لا تضجر فيه، ولا شكوى، ولا تسخط مع أنّه تلت هذه المصيبة مصيبة أخرى وهي أن ابن يعقوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ الثاني أخذ، فقال أيضًا يعقوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًا﴾ [يوسف: ٨٣].

يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ مرّت عليه سنوات كثيرة جدًّا حتى أصبح على خزائن مصر، لكن انظر إلى ذلك الأمل الذي في القلب: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾، انظر إلى المبعث الإيماني في معرفته لأسماء الله وصفاته، الله عليم بحالي وحالهم، وأين هم، وحكيم في ما صار وحدث، وسيرجعهم بإذنه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ مع أنّه كان في ألم شديد، من شدة هذا الألم: ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ﴾ [يوسف: ٨٤]، حتى أنّ أبناءه عاتبوه: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ﴾ [يوسف: ٨٥]، تهلك وتموت، وحالك يضعف بسبب ذكراك يوسف، فرد عليهم ردًّا إيمانياً: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]، كلُّ حزنٍ وأسى وألم ارْفعه إلى الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، إن رفعته إلى الله رفعته إلى حليمٍ لطيفٍ قادرٍ قويٍّ عزيزٍ، إن ظُلِمتَ فإنّ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ينصرك، إن كسرت فإنّ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ يجبرك، إن تغرّبت فإنّ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ يُسۡكِنُ وحشتك.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ هذا العلم بالله هو الذي جعله حسن الظنّ بالله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، لهذا اتبع حسن الظن العمل يقول: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: ٨٧]، لازال الأمل

موجُوداً : ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أهل الإيمان لا ييأسون من رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فمع كل هذه الأخبار المؤلمة، والابتلاءات المتوالية إلا أنّ الأمل بالله كبير، والرجاء به عظيم، وحسن الظنّ به كبير، فهكذا فليكن المؤمن حسن الظنّ بربه، مهما اجتمعت عليه الأحزان، ومهما توالت عليه الآلام، فلا بد من نورٍ من الله يجلو به ذلك الظلام، وينفتح به طريق الآمال.

هَوِّنْ عليك فكلُّ الأمرِ ينقطِعُ ... وخَلِّ عنك ضبابَ الهمِّ يَندَفِعُ
فكلُّ همٍّ له مِن بَعدِه فرَجٌ ... وكلُّ كربٍ إذا ما ضاق يَتّسِعُ
إنّ البلاءَ وإن طال الزّمانُ به ... الموتُ يَقطَعُه، أو سوف يَنْقَطِعُ

لا تجمع على قلبك أَلَمَين، لا تُوجد في قلبك حُزنين، لا تجمع في قلبك ألم الابتلاء وألم البعد عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا تجعل في قلبك حُزنين، حزن ذلك الابتلاء أو المُصاب، وحزن فوات الأجر العظيم الذي يمتّن به الله على العبد في تلك المصائب.

هذه الدنيا -حفظكم الله- لا تصفو لأحد، وهي قصيرة الأمد، فإن أردت أن تكون في راحةٍ وسعادة فكن فيها مع الله الواحد الأحد.

واللهِ مَا لَكَ غيرُ اللهِ مِن أحدٍ ... فحَسْبُك اللهُ في كلٍّ لكَ اللهُ

أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يوفقنا لكل خير، وأن يحفظنا بحفظه، وأن يشرح صدورنا، ويسعد قلوبنا، وأن يغفر ذنوبنا، وأن يحفظ ولاة أمرنا.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.